

ليس إلا صداً متراً كما فوق معدن أخلاقه الحقيقية، والأوروبيون لذلك لا يرون ولا ينقدون إلا صداً كئيفاً سوف يذهب جفاء أو هباء، وسوف ينجلي ما تحته بفضل الثقافة والتعليم. ولا أظن أن ثمة أملاً في ظهور تلك الأخلاق الحقيقية لهذا الشرق إلا عن طريق الثقافة والتعليم. والمسئولية هنا مركزة تركيزاً كلياً في أيدي المهيمين على مستقبل الثقافة والتعليم والشئون التربوية في أوسع معانيها. وإذا شبهتُ ما يرين على أخلاق هذا الشرق كأنه صداً فوق معدن كريم سوف ينجلي، فإنني أعتقد بوجود دراسة المشبه به وطبيعته وطرق إزالته، أي دراسة الطرق التي يستعملها المعدنيون لإزالة الصداً عن المعادن، وإستخدام ما يشبه هذه الطرق في علاج ما يغشى أخلاق هذا الشرق من نقائص طارئة. وإخال أن هذه الطرق تتلخص في السرعة المشربة بالأناة، والصرامة الممتزجة باللين، والحماسة المختلطة بالصبر، والدقة المستندة إلى التسامح.

وإنني كذلك من المتفائلين المؤمنين بمستقبل الثقافة والتعليم والتربية في هذا الشرق الأوسط، ولست أرى كفيلاً بذلك المستقبل إلا دراسة التاريخ. على أني لا أعنى أن يصح التاريخ سيد الدراسات في المعاهد والمدارس والمنشآت العامة، وأن يهمل غير التاريخ من العلوم والفنون كالطلب والهندسة والكهرباء والكيمياء والفيزياء والجيولوجيا، والأدب والجغرافيا والموسيقا والنحت والتصوير، كما أني لا أرمى إلى التقليل من أهمية أي علم أو فن من هذه العلوم والفنون، بل إنني أهدف إلى بيان أهمية التاريخ بالقياس إلى هذه العلوم والفنون. ذلك أن التاريخ وإن كان يساوي هذه العلوم والفنون في المنفعة، فإنه يفوقها من ناحية القيمة التثقيفية والتربوية، لأن الطب يخرج الأطباء، والهندسة تعدّ المهندسين، والكيمياء تمدنا بالكيمياويين، ولكنها وغيرها من العلوم المادية لا تشتمل اشتغال التاريخ على قيم تثقيفية وتربوية، وكلاهما لازم لتكميل المواطن المفيد، بقطع النظر عما يقوم به ذلك المواطن من عمل مهني نافع لا مشاحة في منفعته. وأقول ذلك أيضاً في الفنون، فالموسيقا تهذب الإحساس وترهفه عند الموسيقار وسامعيه، والتصوير يصقل الشعور وينيره عند المصور والمعجبين به، والنحت يربى ملكة الدقة والرمزية والابتكار عند النحات والمختلفين إلى نماذجه، ولكن التاريخ يفوق على هذه وتلك بما ينطوي عليه من قيم تثقيفية وتربوية فريدة.

